نـــوح عليه السلام

ظلَّ قومُ نوح يعبدون الأصنامَ دَهْراً طويلاً، واتخذوها آلهة يرجُون منها الخير، ويستدفِعُون بها الشرّ، ويردُّون كلَّ شيء في الحياة إليها، ودَعوْها بمختلف الأسماء، تارة وَدًّا وسُوَاع ويَغوث، وتارة يَعُوق ونَسْراً، على حسب ما يُملي عليهم الجهل، ويزَيِّنَ لهم الهوى، فأرسل الله إليهم نوحاً عليه السلام، وكان رجلاً فَتِيق[1] اللسان، واضعَ البيان، رَزِين الحَصَاة[2]، بعيد الأناة[3]، رزقه الله صبراً على الجدل، وقدرة على تصريف الحجج، وبَصَراً بمسالك الإقناع، دعاهم إلى الله فأعرضوا، فأنذرهم بالعِقَاب فَعَمُوا وصَمُّوا، ورغَّبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا، ولكنه ناضلَهم وجادلهم، ثم صابرهم وطاولهم، فمدّ لهم حبل أنَاتِه، وأفرغ معسول كلماته؛ ولم يَضْعُف في إيمانهم رجاؤه، ولم يدع اليأس يسلك سبيلاً إلى قلبه؛ بل أخذ يفتنَّ في الدعوة، ويجاهدُ في إبلاغ الرسالة، فدعاهم ليلاً ونهاراً، وسرًّا وإعلاناً، ووجَّه نظرهم إلى سرِّ الوجود، وإبداع الكائنات: ليلٌ داج[4]، وسماء ذات أبراج، وقمر يسبح، وشمسٌ تسطَع، وأرض فجَّر خلالها الأنهار، وأنبت فيها الزروع والثمار؛ كلّ هذا يتحدث بلسان فصيح، وينطق ببرهان صحيح، عن إلٰهٍ واحد، وقدرة فذّة[5] عجيبة.

وهكذا ظل يناضل ويساجل[6]، ويقيم الحجج، ويبسطُ البراهين، حتى آمنَتْ به شِرْذِمة[7] قليلون، استجابوا لدعوته، وصدقوا برسالته.

---

(١) الفتيق: الفصيح الحاد اللسان.
(٢) الحصاة: العقل والرزانة.
(٣) الأناة: الحلم والوقار.
(٤) دجا الليل: عَمَّت ظلمته وألبس كل شيء فهو داج.
(٥) الفذُّ: المتفرد في مكانته.
(٦) ساجل: باري.
(٧) الشِّرذِمَة مِن الناس: الجماعة القليلة.

أمَّا الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمِنُوا، وسبقت لهم الشقوة فلم يهتدوا ـ وكانوا من عَرَانين[١] القوم وذي الشرف الصَّاعد فيهم ـ فقد تمالئوا[٢] عليه، وتظاهروا على الاستهزاء به وتسفيه رأيه.

قالوا: ما أنت إلا بشر مثلنا، وواحدٌ منا، ولو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعثه مَلَكاً، ولَكُنا أصخنا لقوله، وأجبناه لدعوته، ثم ما هؤلاء الأراذل من طغام[٣] الناس وحُثالتهم، وأهل الصناعات الخسيسة والحرف الدنيئة، الذين انقادوا إليك بادِيَ الرأي من غير أن يُمَحِّصوا آراءهم، أو يُنْضجوا أفكارهم لو كان خيْراً ما سبقنا إليه هؤلاء! لو كان حقاً ما تقولُ لكنّا ـ ونحن أولو الفطنة والزكانة، وأصحاب الأذهان الصافية، والأحلام الراجحة ـ أسبقَ إلى الإيمان بك، والاقتداء بهداك!

ثم لَجُّوا في الجدل، وأمعنوا في المراوَغة، وقالوا: وما نرى لك، يا نوح، ولِصَحبك علينا من فضل، لا في العقل والْحِجا، ولا في بُعد النظر، ولا في رعاية المصالح، ولا معرفة المعاد وخاتمة المطاف، بل نظنُّكم كاذبين!

فأجابهم نوح ـ وسفاهةُ قولهم لم تصدَعْ صَفاة[٤] حلمه، ولم تُثِرْ قَطاة[٥] رأيه وعقله: أرأيتم لو أنني كنت على بيِّنة من ربي، وحجة شاهدة بصدق دعواي، وآتاني رحمة منه وفضلاً، فعمي عليكم القصد، واشتبه الأمر، وحاولتم ستر الشمس بأكفّكم، أو طمس النّجوم بأيديكم، فهل أستطيع لكم إلزاماً، أو أملك لحملكم على الإيمان سلطاناً!

قالوا: يا نوح، إن أردت لنا هداية وتوفيقاً، وأردت منا نصراً وإعزازاً، فاعمد إلى هؤلاء الأوزاع[٦] الذين آمنوا بك، فأقصِهم عن حظيرتك، وانبِذهم عن حماك، فإننا لا

---

(١) العرانين: جمع عرنين وهو ما صلب من الأنف حيث الشَّمَمَ ويقال: هم شُمُّ العرانين: أعزة أباة وعرانين القوم: ساداتهم وأشرافهم.
(٢) مالأ: ساعد وعاون.
(٣) الطغام: أرذال الناس وأوغادهم.
(٤) الصفاة: الحجر العريض الأملس.
(٥) القطاة: نوع من اليمام. والمقصود أن سفاهتهم لم تؤثر في رجاحة عقله.
(٦) الأوزاع: الجماعات ـ أو: البيوت المنتبذة عن مجتمع الناس.

نستطيع أن نجريَ في عِنانهم، أو نسير على أسلوبهم، أو نُقرَنَ في الاعتقاد بهم. وكيف نستجيب لدين يستوي فيه الشريف والمشروف، والملك والسوقة؟

قال لهم: إنها دعوة عامّة شاملة لكم جميعاً، يستوي فيها نبيهكم وخاملكم، مشهوركم ومغموركم، الأغنياء منكم والفقراء، والمرؤوسون والرؤساء. وهبوني أجبتكم إلى مطلوبكم، وحقّقتُ بطردهم مرغوبكم، فمن الذي أعتمد عليه في نشر الدعوة وتأييد الرسالة؟ وكيف أطْرد قوماً نصروني وقد لقيت منكم الخِذلان، ووصلت كلماتي إلى قرارة نفوسهم. وما صادفتْ منكم إلاّ الجحود والنكران! وهم ما برحوا قُوّاماً على الدين، داعين إلى الله. ثم كيف يكون حالي معهم بين يدي الله إذا خاصموني وحاجُّوني، وشكوا إلى الله أني قابلت خيرهم بالكنود[1] وإحسانهم بالجحود؟ ألاّ إنكم قوم تجهلون!

ولما اشتدّ بينهم وبينه الجدل، وانفرجت مسافة الخُلْف، سئموا منه، وضاقت صدورهم به، وقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2]

فهزىء بهم نوح، وقال: إنكم تسرفون في الجهل، وتمعِنون في الحمق، ومَن أنا حتى آتِكم بالعذاب، أو أصدَّه عنكم؟ وهل أنا إلاّ بشر مثلكم يوحَى إليّ إنما إلٰهكم إلٰه واحد، فأبلِّغُكم ما أُمِرت به، وأبَشِّركم بالثواب مرة، وأنذركم بالعذاب أخرى؟ ألاَ إنّ مردَّ كل شيء إلى الله، إن شاء هداكم، وإن شاء استعجل فآذاكم، وإن شاء أملى[3] لكم ليزيد في عِقابكم، ويُمعِن في النِّكاية بكم.

* * *

والأنبياءُ ـ لكي يُؤَدُّوا رسالتهم على وجهها الكامل ـ رزقهم الله صبراً على الإيذاء، وجلداً على الخِصَام؛ كما وسّع في رُقعةِ أحلامهم، ومادّ[4] لهم في حِبَال رجائهم، لكيلا يكون للناس على الله حجّةٌ بعد الرسل، ولا لمن كفر عذْرٌ بعد الأنبياء.

---

(١) الكنود: كفران النعم.
(٢) سورة: هود، الآية: ٣٢.
(٣) أملى الله لهم: أمهلهم وأطال لهم.
(٤) ماد: تحرك وهنا بمعنى أطال.

ونوحٌ كان من أولي العَزْم من الرسل، مكث في قومه ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً، صابراً على أذاهم، صامداً لاستهزائهم، يرصد فيهم بَرْقَ الأمل، ويشيمُ منهم بارقَ الإيمان، ولكنهم ما ازدادوا على الأيام إلاّ عُـتُـوًّا[١]، وما بلغت دعوتُه منهم إلاّ نفوراً، فعاد حَبْلُ الرجاء بالياً، ووجه الأمل أسود حالِكاً؛ ففزعَ إلى الله شاكياً ملتجئاً، مستعيناً مستهدياً، في هؤلاء الذين عجزت حيلتُه فيهم، ويكاد الأملُ ينقطع في إيمانهم، فأوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٢].

ولما رأى نوحٌ أنَّ الله قد حقَّت كلمتُه، وقضى وَحْيُه أنه لن يؤمنَ أحدٌ بعدُ، وأنه قد طبع على قلوبهم، ووضعت عليها الأقفال، فلم يعودوا يخضعون لبرهان، أو يُـذْعِنون[٣] إلى إيمان، نَفدَ صبره، وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[٤].

فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه: أنِ اصْنَع الفُلكَ بأعْيُننا وَوَحْينَا ولا تُخَاطبني في الذينَ ظلَمُوا إنهم مُغْرَقُونَ، فاتخذ مكاناً قاصياً عن المدينة، وأعدَّ الألواح والمسامير، وأخذ يعمل، ولكنه لم يَـنْجُ من سُخْرية القوم واستهزائهم.

وقال بعضهم: إنك يا نوحُ كنت تزْعُمَ قبل اليوم أنك نبيّ ورسول، فكيف أصبحتَ اليوم نجَّاراً، أزَهِدْتَ في النبوّة، أم رغبت في النجارة!

وقال غيرهم: ما بَالُ سفينتِكَ تصنَعُها بعيدةً عن البحار والأنهار! أأعْدَدْت الثيران لجرِّهَا، أم كلّفت الهواء حَمْلَها؟ ولكنه أعرض عن استهزائهم، ومرَّ كريماً على لغوهم، وقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[٥].

وانصرف إلى السفينة يُقيم ألواحها، ويصل أجزاءها، حتى استوت سفينة مَـكِينَةً

---

(١) عَتا عُتواً: استكبر وجاوز الحد.
(٢) سورة: هود، الآية: ٣٦.
(٣) أذعن يذعن: انقاد ينقاد.
(٤) سورة: نوح، الآيتان: ٢٦ و٢٧. ومعنى دياراً: أي نازل دار.
(٥) سورة: هود، الآيتان: ٣٨ و٣٩.

ذات ألواح ودُسُرٍ[١]، وانتظر نوح ما يكون مِنْ أمر الله؛ فأوحى إليه: إذا جاء أمْرُنا، وظهرت آياتُنَا، فاعمد إلى سفينتك، وخُذْ مَنْ آمن مِنْ قومك وأهلِكَ، واحْمِلْ معك من كلٍّ زوجين اثنين حتى يبلغَ أمْرُ الله.

وتفتَّحت أبواب السماء بالماء، وتفجَّرَت عُيُون الأرض، وبلغ السيل الزُّبَى[٢]، ثم جاوز القِيعان والرُّبَا؛ فهرع نوحٌ إلى السفينة، وحمل ما أمر الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات، وسارت باسم الله مجراها ومُرْساها: مرَّة هي في رِيح رُخاء[٣]، وآونة في زَعزَعٍ[٤] نَكْبَاء[٥]، والأمواجُ تَفْتَح بين طَيَّاتها للكافرين قبوراً، والزَّبَدُ يَخيط لهم أكفاناً، يغالبون الموت والموت يغلبهم، ويصارعون الموجَ ولكن الموج يَصْرَعهم، حتى طوتهم الأمواه[٦] طيّ السرّ في الفؤاد.

وأشرف نوح فوقَ ظهر السفينة، فرأى ابنه كنعان ـ وكانت شقْوَةُ الله قد غلبَتْ عليه ـ فاعتزل أباه، ورغِب عن دِينه ـ يخوض اللُّجج[٧]، ويُدَافع المَوْجَ، ويحاول أن يعتصم بجَبَلٍ يُنْجيه، أو ربْوَة تُنْقذه، ولكن الْحِمَام[٨] كان منه يَدْنُو، والغَرَق يقترب، فرقَّت له كبده، ولانَتْ أعطافُ رحمته، وهاج مَوْضعُ الإشفاق والحبِّ فيه؛ فناداهُ لعلَّ نداءهُ يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن، أو يلمس ناحيةَ الشعور فيه فَيُذْعن: إلى أين يا بنيَّ؟ إنك تفرّ من قضاء الله وقَدَرِه إلى قضاءِ الله وقَدَرِه، هَلُمَّ إلى السفينة مؤمناً، فيلتئم شَمْلُكَ بأهلك، وتَنْجُو ببدنك ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾[٩].

---

(١) الدسر: جمع دِسار، وهو حبل من الليف تشد به ألواح السفينة.
(٢) بلغ السيل الزبى: يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد، والزبى جمع زبية وهي الرابية التي لا يعلوها الماء.
(٣) رخاء: لينة.
(٤) الزعزع من الريح: الشديدة.
(٥) النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال.
(٦) الماه: الماء وجمعها أمواه.
(٧) اللجج: جمع لُجَّة، وهي معظم البحر وتردد أمواجه.
(٨) الحِمام: الموت.
(٩) سورة: هود، الآية: ٤٢.

ولكنَّ هذه الكلمات لم تَصِلْ إلى قرارةِ وِجْدَانه، ولم تجاوز شِغَاف[١] قلبه، وحسبَ أنه قادرٌ على أن يَحذرَ المكروه، وَيُـفْلِتَ من يَدِ القدر، فقال: إليك عني، فإني ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[٢].

قال نوح ـ وقد أشْجَاه[٣] الهَمّ، وغلبهُ الوَجْدُ[٤] ـ: يا بُنيَّ، إنه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۖ﴾[٥].

ثم فصلَ بينهما الموجُ، وحجز السيل، ولم يَعُدْ يرى ابنه؛ فلِذَة كَبِده، وحُشَاشة قَلْبه؛ فاعتلج صَدْرُه هَمًّا، واتّجه إلى الله ملجإ الملهوف، وغوْثِ المكروب، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾[٦]، وقد وعدتَ ـ ووعدك الحق ـ إنكَ تنجيني ومَنْ آمن مِنْ أهلي، وأنت أحكم الحاكمين.

فأوحى الله إليه: يا نوحُ إنَّهُ ليس من أهلك، ولا من خاصَّة عشيرتك، فقد سبقَتْ له الشَّقَاوَة، وحقّت عليه كلمة الكفر، فلا تَعدّ من أهلك إلا مَنْ آمن بك، وصدّق برسالتك، واستجاب لدعوتك، هذا الذي تعده حقًّا من أهلك، وهو الذي وعدتك بنجاته، وإنقاذ حياته ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾[٧].

أما من جَحَد برسالتك، وكذب بكلمات ربك، فإنه خارجٌ عن أهلك، منبوذٌ من شفاعتك، وإن كان بينك وبينه رَحِمٌ ماسة، أو نَسَب جامِع، وهو لا بدّ واردٌ حَوْضَ المنيَّة، مشرفٌ على الغاية المحتومة، وإن اعتصم بجبَل، أو أوَى إلى ركْنٍ[٨] شديد، فإياك بعدها أن تسألني عن شيء لا تعلمه، أو تجادلني في أمر لا تدركه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾[٩].

---

(١) الشّغاف: غلاف القلب أو سويداؤه وحَبَّته.
(٢) سورة: هود، الآية: ٤٣.
(٣) أشجاه: أحزنه.
(٤) وَجِد وجداً: حَزِن حزناً.
(٥) سورة: هود، الآية: ٤٣.
(٦) سورة: هود، الآية: ٤٥.
(٧) سورة: الروم، الآية: ٤٧.
(٨) الركن: ما يتقوى به من ملك وجند وقوم.
(٩) سورة: هود، الآية: ٤٦.

وحينئذٍ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق، والإشفاق ستر عنه الصواب، وكان أولى به أن يبْسُط كفّيْه شكراً لله على ما خَصَّه وقومه المؤمنين من النجاة، وعلى ما أوقعه على الكافرين من الغرق والهلاك، فالتجأ إلى الله مستغفراً من ذنبه، ومستعيذاً من سخطه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾[1]، وحال المَوْج بينه وبين ابنه فكان من المغرقين.

ولمَّا بلغ الشوطُ غايتَهُ، وطُوِيت صحيفةُ القوم الظالمين، كفّت السماء، وابتلعت الأرضُ الماء، ورسَت السفينة على جبل الْجُودِي[2]، وقيل: بُعْداً للقوم الظالمين!

وقيل لنوح: اهبط بسلام إلى الأرض؛ أنت ومَنْ آمنَ معك مِنْ قومك؛ تحفُّكم البركة، وتكلؤُكم العنايةُ؛ عناية الله.

---

(١) سورة: هود، الآية: ٤٧.

(٢) الجودي: هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل.